١٠ ـ الفـــن

للأديب الفرنسي بول هيزيل

بقلم الدكتور محمد بهجت

الفصل السابع — عن الأمس وعن اليوم

منذ بضعة أيام صحبت أوجيست رودان إلى متحف اللوفر إذ كان ذاهباً لمعاينة تماثيل أودون النصفية مرة أخرى .. ولم نلبث أن وقفنا أمام تمثال فولتير Voltaire النصفي وعندئذ صاح رودان :

(تمثال فولتير للمثال أودون)

« يا له من أعجوبة ! إنه لمخيف والدهاء بعينه . انظر! إن نظراته الشزراء لتبدو كأنها ترقب خصماً . أما أنفه فأقنى مستدق كأنه أنف ثعلب ليخيل إليك أنه يتشمم المثالب والمعائب من كل ناحية . ولتستطيع أن تراه يسمع ... والفم ! يا له من فوز عظيم ! لقد حُدَّ بخطين من القذع والهجاء ، ويلوح كأنه ينمنم بالهكم والسخرية . ولا يسعك وأنت تنظر إلى فولتير هذا الذي يفيض نشاطاً وحيوية ، ويُفحص سقاماً ، والذي يعوزه الكثير من سمات الرجال — لا يسعك إلا أن تقول عنه إنه محدث بارع عجوز » . وبعد فترة من التأمل عاود حديثه قائلاً :

والعينان ! إني لأرجع دواماً لمشاهدتهما . إنهما شفافتان ، مضيئتان .

« ولكنك تستطيع أن تقول مثل هذا عن كل تماثيل أودون Houdon . لقد أدرك هذا المثال كيف يجعل تحدق العيون أكثر شفافية من أي مصور . إنه يخرقها ويثقبها ويبرزها ، ويجعل بها معالي ومواطن بحيث تحدث تأثيراً فذاً عند ما يقع عليها الضوء أو ينحرف عنها ، ويقلد تلك اللمعة الحية التي بإنسان العين . وما أعظم ما تختلف التعابير التي بعيون كل هذه الوجوه ! إنها تدل على الخبث من فولتير ، وعلى الصداقة الطيبة في فرانكلن ، والرقة البهجة في السيدة هودون ، وعلى المكر في ابنته وفي طفلتي برونيار الجميلتين . ولقد تعدل اللمحة عند هذا المثال أكثر من نصف التعبير ، فهو يقرأ الأرواح من الأعين التي لا تخفى عليه سراً . ولهذا فلا داعي للتساؤل عما إذا كانت تماثيله مشابهة لأصحابها مشابهة تامة » .

وهنا استوقفت رودان سائلاً :

« إذاً أنت ترى أن المشابهة صفة هامة لازمة ؟ » .

« لا ريب في ذلك فلا غنية عنها » .

ومع ذلك يزعم كثير من الفنانين أن بعض التماثيل والصور يمكن أن تبلغ حداً كبيراً من الجمال من غير أن يتوفر فيها شبه قوي . وأذكر بهذه المناسبة حادثاً نسب إلى المصور إنر Henner الذي شكت إليه سيدة من أن صورتها لم تأت شبيهها . فأجابها بلهجته الإيزاسية :

« هيه يا سيدتي ! بعد ما تموتين سوف يحسب ورثتك أنفسهم

سعداء لأنهم يقتنون لوحة طبية من ريشة إنبر ، ولكنهم سوف لا يجهدون أنفسهم ألبتة ليتحققوا مما إذا كانت تشبهك » .

فقال رودان :

من المحتمل أن يكون المصور قال ذلك . وأغلب الظن أن هذا تسرع منه لا يمثل حقيقة أفكاره لأنى لا أعتقد أن له مثل هذه الآراء الخاطئة فى فن أبدي فيه براعة عظيمة وألمعية نادرة .

ولكن دعنا نتفهم أولا مدى التشابه المطلوب توفره فى تمثال أو صورة ما .

« إذا قصر الفنان نفسه على إظهار القسمات السطحية كما هو الحال فى الفوتغرافية ، أو إذا نسخ معالم الوجه تماماً كما هى من غير ما رجوع إلى الخلق أو اعتباره فهو لا يستحق أى ثناء أو إعجاب . أما الشبه الذى يتحتم عليه إظهاره فهو شبه الروح . وهذا وحده بيت القصيد . وهو ما يجب على التمثال أو المصور أن يبحث عنه تحت ستار القسمات . وقصارى القول يجب أن تكون كل القسمات حافلة بالتعبير أو بمعنى آخر تكون ذات فائدة فى الإفصاح عن شعور باطن » .

« ولكن ألا يحدث فى بعض الأحوال أن يكون الوجه مناقضاً للروح ؟ » .

« أبداً » .

« وهل نسيت نصيحة لافونتين التى تقول : « لا تحكموا على الناس من ظواهرهم ؟ » .

إن هذه النصيحة موجهة لأولئك الذين لا يتعمقون الأشياء ، إذ كثيراً ما تخدع الظواهر نظرتهم العجلى . ويكتب لنا لافونتين أيضاً عن الفأر الصغير الذى حسب الهرة أعظم الحيوان حدباً وعطفاً . ولكنه يتكلم عن فأر صغير أى عن عقل غر ضعيف تعوزه القدرة على التمييز . ولا يسع من يدرس الهرة بإمعان إلا أن يجد فى ظاهرها ما يحذره من القسوة التى تستتر وراء تناومها وتكمن فى وداعتها .

وفى مقدور من يستطيع قراءة الوجه أن يميز بين من يصطنع الحنان وبين من طبع عليه ، وإنه لمن أخص واجبات الفنان أن يكشف عن الحقيقة ولو من تحت المظاهر الخادعة .

ولتقرير الحقيقة أقول إنه لا يوجد عمل فنى يحتاج إلى كثير من التعمق مثلما يحتاجه التمثال النصفى والصورة الإنسانية . وقد يقال أحياناً إن حرفة الفنان تتطلب مهارة يدوية أكثر مما تتطلب فطنة وذكاء . وما عليك إلا أن تدرس تمثالا نصفياً طيباً حتى تستطيع أن تدحض هذا القول وتصحح هذه الأغلوطة . إن عملا كهذا خليق بأن يترجم له . وأنت حين ترى تماثيل أودون مثلاً تخالك تقرأ فصولاً من مذكرات مدونة ، فترى فيها العصر الذى عاشت فيه ، والحرف التى احترفتها ، والأجناس التى انتمت إليها وأخلاقها الشخصية ، ترى كل ذلك فيها واضحاً جلياً .

وها هو روسو قبالة فولتير . ترى فى نظرته حذقاً وذكاء وفطانة بالغة . وهذه ميزة عامة امتازت بها شخصيات القرن الثامن عشر . كانوا نقدة . كانوا يناقشون ويجادلون فى كل المبادئ والمعتقدات التى كان مسلماً بها من قبل من غير ما تحقيق وتمحيص . كانت لهم أعين فاحصة باحثة نفاذة .

أما عن نشأته فهو من عامة السويسريين . كان سوقياً غير مثقف بقدر ما كان فولتير شريفاً نابهاً . وبينما ترى عظم وجنتيه البارز ، وأنفه القصير ، وذقنه المربعة تبين فيه ابن صانع الساعات والخادم الذى امتهن الخدمة من قبل .

وأما عن حرفته فهو الفيلسوف بجبهته المائلة المفكرة ، ينتمى لطراز قديم يتجلى فى العصابة التقليدية التى تدور حول رأسه . زرى الهيئة بشكل ظاهر متعمد ، أشعث أغبر مما يجعله قريب الشبه من ديوجينيس أو مينيبس (Menippus)[1] هو للبشر الذى يدعو للرجوع إلى الطبيعة وإلى الحياة البدائية الفطرية .

« وأما عن أخلاقه الشخصية فترى تجهما فى وجهه ينم عن كراهية للنوع الإنسانى ، وحاجبيه القطبين وجبهته المقضنة ، ترى فيه الرجل الذى يشكو بحق ويتذمر من الظلم والاضطهاد » .

« قل لى بربك . أليس هذا التعليق على الرجل بأحسن وأدق من اعترافاته ؟

« ثم ها هو ميرابو (Mirabeau) . إنه عصر بأكمله ، يبدو بحالة تحد . شعره المستعار مشوش غير مصفف ، بزته غير حسنة ، وهيئته زرية ، وكأن ريحاً من عاصفة ثائرة تمر على هذا الوحش

(١) كاتبان إغريقيان أسلوبهما ساخر تهكمى

الكاسر الذى يهم بالزئير أو يرعد بجواب على سؤال يلقى إليه .

« ولننتقل نشأته الآن : نتوسم فى طلعته المهيبة ، وحاجبيه الدقيقين للقوسين ، وجبهته المرتفعة المتعجرفة شريفا كان فى زمرة الأشراف ، ولكن ديمقراطية حديه الثقيلين المجدورين ورقبته الثائرة بين كتفيه جعلت الكونت دى ريكتى Comt de Riguetti — ميرابو — يجوز على تيير (Thiers)[1] ويفوز بعطفه ومراحمه ومن ثم أخذ يدافع عنه .

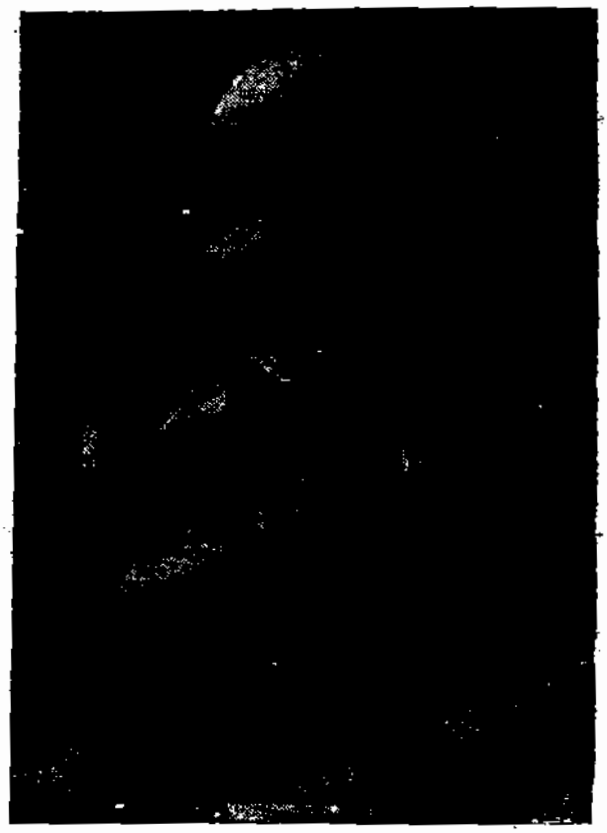

(تمثال ميرابو للفنان أودون)

« ولننتقل إلى حرفته : إنه القاضى ، يبرز فمه إلى الأمام كأنه يوق على وشك أن ينفجر منه الصوت مجلجلا . يرفع رأسه عالياً لأنه قصير كما هو شأن جمهرة الخطباء . ونرى فى مثل هذا الطراز من الرجال أن الطبيعة تزيد فى قوة الصدر والأضالع على حساب الطول . أما العينان فلا تثبتان على شىء معين وإنما تدوران على جم غفير . يا لها من نظرة عظيمة غامضة ! ناشدتك الله خبرنى أليس من أجل الأعمال وتمام الفوز أن يمثل فى هذا الرأس وحده جمعاً حاشداً بل أمة بأسرها تصغى وتستمع ؟

ولنبحث بعد ذلك عن أخلاقه : لاحظ الشفتين الحساستين ، والنقر المزدوجة ، والمنخر المرتعد فترى الآثام والانغماس فى الشهوات وطلب الملذات مرتسمة عليها جيماً . نعم تراها كلها هناك . وإنى لمخبرك بذلك .

وإنه لمن السهل الهين أن نقرأ فى كل تماثيل أودون مختلف الأخلاق على هذا النمط .

وهنا أيضا تمثال فرانكلن : ترى فيه هيئة عظيمة ، وخدين ثقيلين متدليين فتقول هذا هو الصانع السابق . ثم الشعر الرجل الطويل الذى يشبه شعر الرسل ، وحب الخير والمعروف مرتسما فتقول هذا هو ، ريتشارد المهذب الطيب القلب .

ثم إن جبهته العالية المائلة إلى الأمام تتسم بالعناد وتنم عن الثبات والصبر الذى أظهره فرانكلن فى تحصيل علومه ، وفى السمو بنفسه حتى أصبح معلماً نابهاً يشار إليه بالبنان ، وأخيراً إلى تحرير وطنه . ذكاء جم تفيض به العينان ويكمن فى زوايا الفم . على أن أودون لم ينخدع بجسامته فابان فيه مادية الرجل المالى الذى جمع مالا فأخلده ، ودهاء السياسى الذى استظهر بواطن السياسة الإنجليزية . فها هنا نرى أحد أسلاف أمريكا الحديثة على قيد الحياة

« عجباً ! ألا ترى فى تلك التماثيل البديعة أخباراً متقطعة عن نصف قرن ؟ وأن أكثر ما يسر النفس من تلك المذكرات المتخذة من الصلصال والرخام والشبه كما هو الحال فى أجل القصص المكتوبة — هو جمال أسلوبها الناصع ، ورشاقة اليد التى دونتها وفيض تلك الشخصية الساحرة — الفرنسية لحما ودما — التى خلقتها . إن أودون هو سنت سيمون[1] لكن تنقصه نزعاته الأرستقراطية. هو فى ذكاء سنت سيمون ولكنه أسمى منه عاطفة. آه يا له من فنان مقدس ! » .

دكتور محمد بهجت

قسم البساتين

(١) كاتب ، ومؤرخ ، وسياسى فرنسى ولد سنة ١٧٩٧ ومات سنة ١٨٧٧ .

(١) أحد أفراد أسرة سنت سيمون العظيمة وهو لويس دى روفرى الكاتب والفاتن الذائع الصيت ولد فى سنة ١٦٧٥ ومات فى سنة ١٧٥٥ م .